أوّل الكلام

أوروبّا: الحضارة المتوحِّشة

■ الشيخ جلال الدين علي الصغير[1]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّــلام على النبيِّ محمد وعلى آله الطيِّبين الطاهرين.

إنّ الحرب ليســت ظاهرة مســتحدثةً في التاريخ البشريِّ، بل هي ظاهرةٌ وُجدت منذ أن نبغت ظاهرة التسـلّط في بعدها النفسيِّ ــ والتملّك على الأرض ــ في بعده الاجتماعيِّ ــ إذ تشير الآية القرآنية الكريمة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [2] إلى وجودها قبل خلق آدم (عليه السلام) الذي ننتسبُ إليه. ومع أنّ التاريخ قد ذكر لنا في تاريخ الأمم المختلفة سجلاً ممتداً مــن الحروب، غير أنّه لم يجعل الدول المُفتعلة للحروب في ميزان واحد، خاصّة إذا ما نظرنا إليه من خلال حجم النِّسب السكانيّة وما يتوفَّر لديها من امتيازات، ويبرز النموذج الأوربيُّ الغربيّ وما تمخّض عنه بعنوانه النموذج اللافت في التاريخ البشريِّ، خاصّة وأنّ حيويّته في مسـألة الحروب وصناعتها ما زالت تصبغ حضارته إلى يومنا هذا.

فالتاريخ الأوربيُّ يتميّز بأنّه الأكثر حروباً وتسبّباً بسفك الدماء، سيّان في ذلك ما كان في تأريخه أو مــا يفعله في واقعه المعاصر، وتحتفظ المعدَّلات القياسـيّة العالميَّة لــه بأعلى المعدّلات، دون أنْ يُدانيه أحد من أيّ مجموعة حضاريَّة أخرى، ورغم العوامل المتعدِّدة التي تشـترك في العادة في صناعة الحروب، إلاّ أنّه يتميّز بأنّ واقعَه الدينيَّ في العصور الوسطى لا يختلف في هذه السجيّة عن واقعه العلمانيّ والملحد في العصور اللاحقة، وصولاً إلى واقعه الذي نحياه في يومنا المعاصر هذا.

صحيــح أنَّ الحــروب والقتل صفة عامَّــةٌ صبغت تاريــخ الحضارات؛ فالــشرق، حتى نكون منصفين، لم يكن مسالماً، فما الذي قام به الغرب ولم يقم به الشرق؟

إنّ هذا الســؤال يبدو مغالطا بقوَّة؛ لأنَّ البناء الحضاريَّ لا يقوم إلاَّ على ثنائية الدفع والتعاون، البناء والحماية، لذلك يمكن لنا بســهولة أنْ نرى الحضارة التي يناها الشرقيّون عبر التاريخ، لكن

1 - المشرف العام لمجلة أمم.

2 - سورة البقرة: 30

أين الحضارة الغربيَّةُ؟

لا ينبغـي أنْ يغريَنا مـا وصلت اليه أوروبا اليوم- ظاهريّاً - فذلك إنمـا يُراد منه أنْ يُخفي أكثر الحضارات دمويَّة وعنصريَّة مقيتة، تنطلق من اسـتعلاء الرجل الأبيض. والمتابع لمسـيرة الغرب المُعاصر يجد أنّها نسـخة مشوّهة من حضارات سـبقتها كانت تسعى محمومةً للتخلّص من أي حضارة أخرى، حضارة لا تقبل سواها.

والتاريخ شاهد لا يكذب. ويمكن الملاحظة أنّه عند وصول الأوروبيِّين لأميركا الشَّمالية، قاموا بإبادة الشعوب الأصلية إبادة تامّة ودمويَّة، كما يمكن الحديث عن العبوديَّة والعنصريَّة، وما فعلوه بالأفارقة الذين استعبدوهم ونقلوهم إلى أمريكا.

ويمكن القول: إنَّ هذا المعدّل القياسيّ يسري على كلّ أنواع الحروب التي خاضها، كحروب الإبادة الدينيَّة أو العرقيّة أو الثقافيَّة، وحروب الاسـتعمار، وحروب تجارة العبيد، وحروب الدمار الشـامل ونظير ذلك، فلقد اختطّ الغـربيّ في الأرض التي تواجد فيها أعلى الأرقام في قائمة هذه الأنماط من الحروب، وتكاد الدقّة لا تُخطئنا إن قلنا: إنَّه لا توجد دولة من الدول الغربيَّة المعاصرة إلاّ وتجد تراثها التاريخي معمّد بالدماء الرخيصة التي غدت أساساً من أسس وجود هذه الدول، من دون فرق بين دماء مواطنيها أو دماء نظرائهم في الدول الأخرى، محاربين كانوا أو مدنيِّين.

والمذهل أنّ البون الشاسع بين طريقة تفكير القرون الوسطى التي كانت تزعم أنَّها ناطقة باسم الله، وبين الطريقة التي زعمت أنّها النقيضُ لما سلف حينما خلعت اللهَ عن عرشه بزعم فلاسفة الإلحـاد ومفكِّريـه، أفضت من حيث المحصَّلـة إلى ذات النتيجة في عالم الـصراع والحروب، والأرقام التي انتهت إليها حروب القرون الوسطى تتقارب من حيث النَّمط مع الأرقام التي أنتجتها حروب الحضارة الغربية المعاصرة إنْ حفظنا الفارقَ من جهة العدد السكانيّ، ومن جهة التطوُّر في تقنيَّات الموت وأسلحته، وفي كلِّ الحالات هي تتفوق بأرقامها على أرقام الحروب التي أنتجتها حضاراتٌ أخرى.

ومع أنّ العالم بعد أنْ ذاق الأمرّين من جرَّاء سلسلة الحروب الدامية التي خطّتها هذه الحضارة في القرنين التاسـع عشر والعشرين ابتداءً بحروب نابليون، ومروراً بالحروب النمساويَّة وحروب توحيد إيطاليا وما شاكلها، وصولاً إلى الحربين العالميَّتين الأولى والثانية وما جرّت إليه من حصاد عشرات الملايين من الأرواح في فترة لا تضاهيها أيُّ فترة من التاريخ العالميِّ في تفنُّن الإنسـان

الأوروبيُّ في إشاعة الموت والاستعباد وانتهاك الحرمات، ومع أنّ هذه المرحلة كانت فرصة كي يَرْعويَ قتلة الغرب عمَّا أسرفوا فيه، ورغم العمل بين الأمم لصياغة وإقرار الآليَّات التي من شأنها أنْ تمنع الحروب، ولكن ما رأيناه من بعد الحرب العالمية الثانية أنّ المعاهدات التي أُقرّت عوض أنْ تكون مؤسِّسة لإحلال السلام، تحوّلت كعنصر إثارة لشهيّة الإنسان الأوروبيِّ بموارد الشعوب ما أدّى به إلى سفك المزيد من الدماء موزعة بين آسيا وأمريكا اللاتينيَّة فضلاً عن أفريقيا؛ وما لم يخضها الأوربيّ بيده استبدلها بما يُعرف بالاستعمار الجديد، فأسس من الديكتاتوريَّات في بلدان ما بات يُعرف بالعالم الثالث؛ لتقوم بمهمة الأوربيِّ بالنيابة عنه، وكان منها ما كان من توجيه وتحفيز وتغطية معلنة وغير معلنة، ما استمرأت القتل وإشاعة الحروب بأصنافها كافة؛ ولكن المحصّلة العمليَّة سلسلة طويلة من الحروب ابتدأت من حروب الهندو الصينية في أواخر الحرب العالميَّة الثانية، وتواصلت في أيام الحرب الباردة، ثم بدأت تعصف أكثر بعد نهاية الاتحاد السوفياتيّ، وما نراه اليوم من جرائم ماجنة في غزّة. فها هو الغربيّ يطل من الأزمة الأوكرانيَّة، ومن الأزمة التايوانيّة، ومن الأزمة الصهيونيّة لفتح ملفَّات حروب أكثر عصفاً وأشدّ دماراً مما شهدته الأرض في كلِّ تاريخها، بل ربما ستكون الحروب السابقة مجرَّد نزهة قصيرة قياساً إلى ما يتمّ إعداده للحروب القادمة، فلقد تغلبت نزعة التسلّط والغطرسة الأوربيّة على أيّ قيمة لها صلة بإنسانيّة الإنسان، فوظّفت الصناعات والتقنيَّات إلى توفير أدوات القتل وآلياته بيد أيِّ حرب، ويكفي أيُّ مراجعة لما تذكره أبحاث الحروب والسلام من أرقام مرعبة لما تمَّ تزويد الجيوش به لتعلم إلى أين تُقاد البشريَّة المقودة من الغرب.

.***

ما من شك أنّ هذا الميل للبطش بالإنسان وتعريضه للقتل لا يتأتّى من فراغ، وسواء أنظرنا إليه من الجانب الأخلاقيِّ أو تنظير الفلسفة السياسيّة أو التبرير الاقتصاديّ أو السيكولوجي، فإنّه يفضي إلى حقيقة واحدة، وهي أنّ العقل الغربيّ مقوّم على أساس عدم الرضوخ إلى أيّ قيد يقف قُبالة معالم الأنا، وما تُفرزه من مظاهر التسلُّط والاستكبار، حتى ولو كان ذلك يعني الخوض بدماء كلّ العالم.

ومنذ أن انتخب الإنسان الغربيّ القطيعة مع الثابت القِيْميِّ والمعياريِّ، وأحال القيم والأخلاقيَّات إلى نتاج الواقع معتبراً إيّاها أمراً نسبياً يتكيّف وفقاً لمنافعه أو مصالحه، ومنذ أنْ أُخرجت الفلسفة

والأفكار من عالم العقل والمعنى وتحوّلت إلى مجرد انعكاس للواقع الاجتماعي ومتطلَّباته، وبما أنّ هـذا الواقع تصنعه القوى المتحكّمة فيه لا ما يخيّل بأنّ الشـعوب هي التي تصنعه[1]، فإنَّنا لن ننتظر أنْ تؤوب الفلسفة والتنظير السياسيُّ من مسار الغطرسة والتسلّط إلى ما يعاكسه، وإنّما على العكس من ذلك تماماً، فالفلسفة السياسيَّة والأخلاقيّة حينما أخرجتِ الإله من مرابعها، وأنزلت الإنسـان من منزلة التكريم الإلهيّ إلى منزلة التراتب الحيـوانيّ، فأصبح الصراع (Conflict) هو القانـونَ الذي يحكم، وهذا الصراع لن يبقى فيه إلاّ الأقوى، وأنّ هذا البقاء محكوم بالرضوخ إلى الإنسان الأعلى قوّة (Super man) كما يعبرّ نيتشه! فماذا تنتظر من نتائج تنعكس على أرض الواقع مـن قبـل صنّاعـه، لا الذيـن يحيـون في جنباتـه؟

والحقيقة، أنه يجب ألاَّ نبالغ في الشعور بالصدمة من جراء سلوك الغرب تجاه مذابح غزة؛ لأنَّ العقل الذي تجرأ على اسـتبعاد "الله" من أنْ يكون مرجعيَّة أخلاقيَّة تتأسَّـس عليها الأخلاق، هو أقرب للكفران بالقيم، والأقدر على ممارسة الجريمة بأريحيَّة تامة.

لقد افتقد الغربيُّ أيَّ شـعور بالمهابة، لأنه يتحـرك مدفوعًا بوهم القوة، ولا يصح أن يردعه أيُّ شيء عن سعيه لإخضاع الطبيعة.

هذه الفكرة هي من الأفكار الجذريَّة في عقل وفي أعماق الوجدان الغربي. وهي فكرة ليسـت منفصلة عن فقدان الغربيِّ للأسـس الإلهيَّة للأخلاق، وعدم احترامه لفكرة الخالق، وهي الفكرة التي تجعل الإنسـان يمضي في حياته متواضعًا أمام مهابة الروح الإنسـانيَّة وقداستها، المستمدَّة من الخالق، وليست القداسة التعاقديَة القابلة للاستباحة بأيِّ لحظة.

ومع أنّ الفكر الأوربيّ وبسـبب من نتائج الصراع الدمويّة مال إلى مبدأ العقد الاجتماعيِّ، كما قنن له توماس هوبز أو جان جاك روسو وأمثالهم، وقد تمّ تحشيد كميّة هائلة من النصوص الناظمة للوحدة الاجتماعيَّة على هيئة قوانين ودساتير ومعاهدات واتِّفاقيَّات.

ولكن يبقى السؤال ملحّاً عن مدى جدوى تلك المنظومات في الحيلولة دون اندلاع الحروب أو الدفع لها، ولا سيَّما أنّ واقعيَّات الحياة أثبتت أنّ أشدّ الحروب شراسة إنّما جاءت من بعد علوّ صيحات القانون وما شاكله من وسائل الضبط والنظم! ولك في مثال غزّة المعاصر دليلاً واضحاً على هشاشة هذه الصيحات وعدم جدواها.

1 - جلال الدين الصغير، صناعة الشذوذ الجنسيِّ كحرفة لتدمير الأمم، مجلة أمم، العدد الأول: ص 13

إنّ الإنسان الغربيّ حينما يتمّ تقنينه على أساس نظرة توماس هوبز التي تقول: إنّ كلَّ إنسان عدوٌّ لكل إنسان[1]، وحينما يتمّ قولبته على أسس الصراع من أجل البقاء كما يصوّره دارون، وأنّ الصراع هو صبغة الحياة كما تجده لدى ماركس، وحينما يقرر له فرويد أنّ الإنسان نزّاع إلى تلبية حاجته العدوانيَّة على حساب قريبه، وإلى استغلال عمله بلا تعويض، وإلى استعماله جنسيّاً من دون مشيئته، وإلى وضع اليد على أملاكه وإذلاله، وإلى إنزال الآلام به واضطهاده وقتله. الإنسان ذئب للإنسان[2]، وحينما يصوّر له مالتوس معادلته البائسة عن نضوب موارد الحياة البشريَّة ما لم يتمَّ التخلُّص من الآخرين، وحينما تجرده من قدسية الأخلاق وتبدلها بأخلاقيات البراجماتيَّة الذرائعيَّة القائمة على قيم المنفعة، فما لا نفع فيه لا فضيلة له، وتمنحه بؤس وجودية جان بول سارتر، وتهب كلّ ذلك في إطار نزعة الأنانيّة الرأسماليَّة التي لا تبالي بالآخرين، وأمثال هذه الأفكار والتنظيرات التي ما كانت لتكون لولا احتياج القوى المتسلّطة لها كي تسوِّغ لها جرائرها وجرائمها، ثم تعمل لتزوّدها بأسلحة الدمار وتِقْنيَّات الفتك للسيطرة والتسلّط والقهر.. أتنتظر غير الحرب والدمار سفيراً لها؟

***

ومهما يكن من أمر، إنّ العدد الثاني من مجلة أمم، والواقع تحت عنوان: الغرب في بربريَّته، يمثل الجزء الاول من إصدار سيأتي في جزأين، الأول (الذي بين أيدينا)، حيث حاولنا فيه أنْ نسلط الضوء على الحروب التي خاضها الأوروبيّ؛ فيما سيعرض العدد التالي للحروب التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية؛ وغني عن القول: إنَّ الأبحاث التي يحتويها هذا العدد لن تؤرخ لجميع الحروب التي خاضتها أوروبا في تاريخها، فإنَّ ذلك يحتاج إلى مجلدات، وإنَّما نقدِّم منها بعض النماذج، مع بحثين يرتبطان بالفكر الأوروبيِّ الذي تهيمن عليه فلسفة القوة والتسلط والقتل، لنشير إلى عقلية غربية متأصّلة تؤمن بالقوة لا بالعدل، وأنَّ الغلبة والقوة والهيمنة والتسلط وحدها هي التي تحدد مكانة كلِّ دولة، ويتحدَّد الحق من خلالها. فالغرب ليس وليد الأنْسنة أو العلوم، أو الأخلاق أو القيم، بل هو أولاً وأخيراً، وليد الظلم والاضطهاد والتوحُّش والبربريَّة.

1 - كتاب الليفاثان: 136

2 -الأعمال شبه الكاملة لفرويد، قلق في الحضارة 8: 147